خاتمة

آن الاوان
دعـــوة ... ومنهـــج

- هيئة للتخطيط والتنسيق
- معهد للتراث

obeikandl.com

obeikandl.com

١ ـ هيئة عليا للتخطيط والتنسيق

أشرت فى محاضرة مضت ، إلى ما لاح على أفقنا من بوادر اهتمام بخدمة تراثنا ، وذكرتُ بعض الجهود المبذولة فى هذا المجال ، من هيئات علمية وثقافية وبعض دور النشر .

ومثل هذه الجهود تحتاج بلا ريب إلى تنسيق ، أعتقد أنه لن يتاح لها بغير تشكيل هيئة عليا للتراث ، تمثل فيها كل المراكز والهيئات والمؤسسات الثقافية الطباعية ذات الاتصال بالتراث .

وطبيعة الموضوع تتجه إلى جامعة الدول العربية ، وتفرض أن تكون الهيئة المقترحة ، من بين مراكزها الثقافية . إذ أن التراث لا يخص قطراً دون آخر من أقطار الوطن العربى ، وإنما هو تراث أمتنا ، ينبغى أن تتعاون على حمايته وإحيائه وتوجيهه لخدمة الحياة .

وهذا الوضع لهيئة التراث فى جامعة الدول العربية ، هو المظهر المعبر عن تقدير قيمة تراثنا وإدراك أبعاده المترامية ، بقدر ما هو سبيل إلى العمل الجاد المجدى لكى يأخذ تراثنا موقعه فى معركة وجودنا المشترك ومصيرنا الواحد .

* * *

مثل هذه الهيئة المقترحة ، تستطيع أن تخطط لإحياء التراث وحمايته وخدمة الحياة به . بحيث تتكامل الجهود فلا تتكرر أو تضيع ، وتتآزر فلا تتبعثر وتتفرق ، وتتناسق فلا يأخذ كل منها طريقه بمعزل عن سواه :

فمعهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية ، تكون مهمته السعى الجاد لإحصاء تركتنا من ذخائر التراث ، وإعداد سجل جامع ، يتابع رصد كل ما فى خزائن المخطوطات العربية بالعالم ، وعمل فهرست علمى لهذه الذخائر ، يكون مرجعاً للعلماء

والهيئات والمؤسسات العاملة فى الميدان ، تختار منه ما يجب نشره طبقاً لبرنامج واضح ينفذ على مر السنين .

والمجامع العلمية ، تكون مهمتها الإشراف على تحقيق ما ينشر من نصوص هذا التراث ، تختار لها الخبراء من المحققين والمراجعين . على أن ينسق العمل بينها فيختص كل مجمع منها بقسم معين من التراث ، كأن يتولى مجمع دمشق الإشراف على تحقيق النصوص اللغوية ، ومجمع بغداد الذخائر التاريخية ، ومجمع القاهرة العلمى مخطوطات تراثنا من العلوم ، ومجمع اللغة العربية تراث الآداب ، ويوزع تراث العلوم الإسلامية على الهيئات والجامعات والمؤسسات الإسلامية ، فى أقطار المشرق والمغرب . .

ودور الكتب الكبرى فى أقطار الوطن العربى . تكون مراكز للتحقيق ، فى خدمة المحققين والمراجعين . تدبر لهم ما يحتاجون إليه من نسخ مصورة للمخطوطات التى يحققونها . وتمدهم بأصول المصادر والمراجع للنص المحقق . وتعد لهم قاعات خاصة مزودة بأجهزة الخدمة والتحقيق ، يتاح لهم أن يعملوا فيها دون إرهاقهم بإجراءات الاستعارة المكتبية كل يوم . أو يضنيهم السعى وراء نماذج الخط والورق والمداد ، ونسخ المخطوطات التى يحتمل وجودها فى دور أخرى ولا يمكن استعارتها أو تصويرها إلا عن طريق هيئة رسمية .

كما تضع مراكز التحقيق بدور الكتب ، عدداً من شباب الفنيين فيها ، مع العلماء المحققين ، يدربونهم على مناهج التوثيق .

ومهمة الطبع والنشر ، تتولاها المؤسسات الثقافية الكبرى العاملة فى الميدان ، كوزارات الثقافة والأوقاف فى الكويت ومصر وسوريا ولبنان والعراق والمغرب ، ودور الطباعة والنشر ذات الخبرة والكفاية فى هذا المجال ، كمؤسسة دار المعارف ، ومكتبات الحلبى بالقاهرة وعبيد بدمشق والمثنى ببغداد . . . على سبيل المثال لا الحصر . . .

* * *

وعلى هذا النحو يتم لمّ الجهود المبعثرة والتنسيق بينها لخدمة حياتنا بتراثنا ، وتتآزر الطاقات العلمية والمادية ، وفاء بحق الأمة فى أن تستضىء بتراثها لتستكمل وعى ذاتها وفهم تاريخها ، ومعرفة مواقع خطاها من ماض إلى حاضر . .

* * *

وإذ كانت عملية التوثيق والتحقيق لمخطوطات التراث، هى الدعامة الأساسية للنشر ، تبدو الحاجة ماسة وجوهرية إلى « معهد عالٍ للتراث » يستحق أن ينفرد بحديث خاص .

obeikandl.com

(٢)

معهد عال للتراث

بين الواقع والمثال

منذ خمسة عشر عاماً ، فى صيف عام ١٩٥٢ على التحديد . كنا نزور المستشرق الدينمركى « أندرسن » فى بيته بمدينة كوبنهاجن ، حيث استقبلنا فى قاعة كتبه التى اتخذها مقاماً له ، بعد أن أعجزته الشيخوخة عن الذهاب إلى الجامعة .

وأخذنى منظره المهيب . وهو عاكف على مخطوط عربى يدرسه بشغف وصبر ، ويسألنا فى بعض ما غمض عليه من ألفاظه وعباراته ، رغم ما يبدو عليه من وهن قواه الجسدية . وشق علينا أن يجهد شيخوخته بمثل هذا العمل المضنى ، فسألته فى إشفاق وتأثر :

ـ أما آن لك أن تستريح من عبء المخطوطات ؟

وأجاب الشيخ من فوره :

ـ كلا يا ابنتى ، فما يزال تلامذتى فى حاجة إلىّ ، ولا أستطيع أن أتخلى عن العبء فيما بقى لى من العمر قبل أن أطمئن إلى قدرتهم على احتماله ، لكى يظل لوطنى وجوده العلمى فى ميدان الاستشراق .

ولفذت كلمته إلى قلبى وفكرى ، ومن يومها وأنا مشغولة البال بهمّ التفكير فيما سوف يئول إليه حال ما بقى لنا من تراثنا ، عندما تمضى القلة من العلماء المتخصصين فى علم التراث ومنهج توثيق النصوص وتحقيقها ، وهم فى الغالب من أساتذة الدراسات العربية والإسلامية موزعين على جامعاتنا فى أقطار الوطن العربى ، حيث لا تتاح لهم فرصة إعداد جيل يخلفهم ، نظراً لتقيدهم بالمقررات التى تلزمهم لوائح الجامعات بتدريسها لطلاب الدرجات الجامعية الأولى ، وليس فيها مجال لمثل هذا التخصص الدقيق ، ولا هى بطبيعتها قادرة على احتماله .

وكلهم من الكهول .

وسوف يصلون إلى سن التقاعد ، واحداً بعد الآخر ، دون أن يُخلفوا من بعدهم من يتلقى الأمانة ويحمل العبء الشاق .

وكان المفروض أن يتجه عدد من طلاب الدراسات العربية والإسلامية العليا ، إلى ميدان تحقيق النصوص المخطوطة ، فى رسائلهم التى يعدونها تحت إشراف هؤلاء الأساتذة ، لدرجتى الماجستير والدكتوراه ، حيث يتلقون أصول منهج التحقيق ويتدربون عليها فى التطبيق العملى ، على نحو ما كان متبعاً فى جيلنا ، حين كان أستاذنا « أمين الخولى » يفرض على طلاب الدكتوراه من قسم اللغة العربية بآداب القاهرة ، أن يقدم كل منهم مع دراسته ، نصا يحققه من ذخائر تراثنا ، فى مجال تخصصه . لكن طلاب الجيل بعدنا ، ما لبثوا أن صدوا عن هذا وأسقطوه من حسابهم . وهى ظاهرة تثير القلق لما يمكن أن تؤدى إليه من فراغ خطير لاحت بوادره منذ سنين .

وفى محاولة لى ، لأستبين موقف الطلاب من التخصص فى تحقيق النصوص عن طريق مناقشة نحو مائتى طالب وطالبة بالدراسات العليا فى أقسام اللغة العربية بالجامعات ، اتضح لى أن الكثرة الغالبة منهم اتجهوا إلى موضوعات تاريخ الأدب والنقد ، وقلة اتجهت إلى النحو واللغة . ولما سألتهم عن زهدهم فى تحقيق مخطوطات التراث ، استخلصت من أجوبتهم أن ذلك يرجع إلى أسباب ثلاثة :

أولها : إشفاقهم من صعوبة هذا التخصص ومن طول الزمن الذى يستغرقه تحقيق مخطوط ودرسه .

الثانى : الجهل بقيمة هذا العمل وجدواه .

والثالث : الإشفاق من ضيق المجال الوظيفى لمن يتخصصون فى علم التراث ، وهم يشهدون مأساة ضياعه فينا ، ويسمعون ما يضج به الأفق من صيحات الاستنكار للاشتغال بهذا القديم البالى ، ويقرأون ما يُكتب وينشر عن رجعية من يحاولون التنقيب فى صناديق الدمى التى تلهى بها أسلافنا ، فى طور الطفولة العقلية والسذاجة الفكرية .

وعذرتهم جميعاً . . .

والأيام تمضى ، وعلماء التراث يمضون معها ...

وكلما ودعنا واحداً منهم ، أحيل على التقاعد أو انتقل من دنيانا ، ازداد إحساسى بفداحة الخسارة فيه ، وخوفى على تراثنا فى المستقبل القريب أو البعيد ، ونحن لم نخطط لعملية إنقاذ تواجه هذا الفراغ وتهيىء لتراثنا جيلاً بعد جيل من الخبراء المتخصصين .

* * *

حتى إذا بدا الاتجاه إلى تخطيط الدراسات الجامعية العليا ودعمها بأساتذة بحوث متفرغين لها ، رجوت أن يكون الأوان قد آن لإنشاء « معهد عال للتراث »[1] — على غرار معهد الآثار — يتيح لنا الانتفاع بخبرة علماء التراث إلى أقصى مدى مستطاع ، ويعبئ طاقاتهم لإعداد جيلٍ جديد من المتخصصين .

والمعهد المقترح ، لا يمكن أن يلحق بالمرحلة الجامعية الأولى قسما من أقسام كليات الآداب أو دار العلوم أو كلية الدراسات العربية بالأزهر ، لأن الدراسة فى المعهد نوع من التخصص العالى الدقيق لا تسمح به طبيعة هذه المرحلة الأولى بعموميتها ومستوى طلابها ، فضلاً عن كونها تحصره فى المجال الدراسى للكلية التى يلحق بها وتوصده فى وجوه من نرجو إعدادهم لتحقيق تراثنا فى الطب والطبيعة والفلك والرياضيات والملاحة والصيدلية والزراعة والقانون . وإنما يبدأ التخصص لمن أتموا دراستهم الجامعية فى هذه الكليات العلمية ، إلى جانب من أتموها فى علوم العربية والإسلام .

ويفتح المعهد أبوابه للطلاب الوافدين من الجامعات والدور العلمية فى مختلف أقطار الوطن العربى والعالم الإسلامى .

وتكون مدة الدراسة فيه عامين ، يدرسون فى أولهما : مجال التراث وأبعاده الموضوعية والزمانية والمكانية ، وتاريخ الكتابة وموادها ، وحركة التدوين عند العرب وما لابسها من ظروف دينية ومذهبية وقومية . وحركة الترجمة والتعريب

---

(١) نشرت الدعوة إلى هذا المعهد بالملحق الأدبى لأهرام الجمعة فى ١٣/١٢/١٩٦٣ ثم تابعت بيان منهجه المقترح فى الأعداد التالية .

لتراث الشعوب القديمة ، ودور الكتب العربية فى عصر الحضارة الإسلامية ، ومعابر انتقال كنوز التراث إلى الغرب ، وحركة الاستشراق فى مراحل تطوره ، وميادين نشاطه ، ومراكزه وأعلامه ، وكتبه ومؤتمراته ومنشوراته من ذخائر تراثنا . كما يدرسون فهارس المكتبة العربية من العصور الإسلامية الأولى إلى مطلع العصر الحديث ، وفهارس المخطوطات فى الشرق والغرب ، وكتب الطبقات ومعاجم أعلام الأشخاص والبلدان ، والمعاجم اللغوية .

ثم يدرسون قواعد المنهج النقلى ، القديم والحديث ، وضوابط الرواية والإسناد فى بيئة علماء الحديث وعلماء اللغة والأدب .

وفى السنة الثانية يدرسون علم الخط العربى ، ثم علم توثيق المخطوطات ، وهو علم بالغ الدقة والصعوبة ، يضع الضوابط للتحقق من أصالة المخطوط والتثبت من صحة نسبه إلى مؤلفه ، عن طريق فحص إسناده ، وورقه ومداده وخطه ، ونسق كتابته والتوقيعات التى قد يحملها لناسخه ، أو ممن قرأوا المخطوط أو تملكوه أو وقفوه . ولا يغنى عن هذا الفحص أن يحمل المخطوط توقيعَ مؤلفه وتاريخ كتابته أو نسخه ، لاحتمال أن يكون كل هذا منقولاً بنسخ متأخر أو مزوراً بتقليد .

ولتقريب الفكرة ، أقول إن لوحة من رسم رافاييل أو مايكل أنجلو أو رامبرانت ، لا يمكن أن يكتفى فيها بتوقيع للرسام قد يكون مزيفاً بمهارة ، وإنما يفحص الخبراء الخط والألوان والقماش وأسلوب الرسم وطابعه وروحه ، قبل أن يطمئنوا إلى أصالة الصورة وصحة نسبها ، وبهذا التوثيق ترتهن قيمة اللوحة ، وتفترق الأصيلة عن المقلدة .

والأمر كذلك بالنسبة إلى المخطوط ، لا قيمة له بغير التوثيق الذى يجب أن يسبق كل عمل فى مقارنة كل نسخه الخطية ، وترتيبها حسب أصالتها وطرق إسنادها ومستواها من الأمانة والضبط ، والترجيح بينها فى مواضع اختلافها طبقاً للأصول المقررة لهذا الترجيح .

وينقسم الطلاب بعد هذه الدراسات المشتركة إلى شعب متخصصة ، تبعاً لنوع الدراسة التى تلقوها من قبل . ويتلقى طلاب كل شعبة ، المنهج العلمى لخدمة

النصوص التى يتخصصون فيها : من تفسير ألفاظ النص وتحديد دلالاتها التى يعينها السياق من بين الدلالات المعجمية التى تتعدد للّفظ الواحد ، ثم التعريف بأعلام النص وخدمة شواهده ، من حيث تدخل كل هذه الجهود لخدمة النص ، فى توثيقه والتحقق من صحة نسبه إلى مؤلفه وعصره ، فقد يكشف لفظ منه أو علم فيه لشخص أو بلد ، متأخر عن عصر المؤلف ، عن زيف المخطوط أو تعديل طارئ عليه .

ويمارسون التطبيق النظرى للمنهج ، فى الفحص النقدى لبعض كتب التراث التى نشرت هنا أو فى الخارج ، مما يدخل فى مجال التخصص لكل شعبة ، كى يميز الطلاب ما نشر منها على الأصول المنهجية ، وما أعوزه التوثيق أو شابته شوائب من خطأ أو تشويه أو قصور .

أما التطبيق العملى ، فيمارسونه فى التدريب على مخطوطات لم تنشر ، يحققونها تحت إشراف أساتذتهم ، على أن يزود المعهد بوسائل هذا التحقيق ، من مصورات « ميكروفلم » وجهاز قراءتها ، وصور لنسخ المخطوطات ، ونماذج تاريخية لأنواع الورق ، والخطوط التى صحت نسبتها إلى العصور المختلفة ، وما يمكن الاطمئنان إليه من معاجم لغوية وكتب طبقات ، يدخل فيها عصر المخطوط الذى يتدرب الطالب على تحقيقه .

* * *

وقد يكون من المجدى ، فى الفترة الأولى لإنشاء المعهد ، أن يُعد الملتحقون به طلابَ بعثات داخلية ، ويوفد المتفوقون منهم بعد إتمام الدراسة فى المعهد ، فى بعثات علمية أو على منح التبادل الثقافى ، إلى معاهد الاستشراق الكبرى فى أوربا مثل ليدن فى هولاندا ، ولينجراد ، وطشقند وموسكو بالاتحاد السوفييتى ، وروما وصقلية بإيطاليا . . . يعودون بعدها أعضاء فى هيئة التدريس بالمعهد .

أما بقية المتخرجين ، فيعينون فى وظائف أمناء المخطوطات بدور الكتب والجامعات والمعاهد والهيئات التى تملك خزائن مخطوطات ، وكذلك الوظائف المختصة بالتراث فى الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية .

وسوف يقتضى الأمر أن نجمع علماء التراث من شتى جامعاتنا ومعاهدنا ، ولن يشق علينا أن نحتفظ بمن يبلغون منهم سن التقاعد الرسمى ، ليشتغلوا فى هذا المعهد أساتذة موجهين ، ويفرغوا لإعداد بحوث تراثية على أعلى مستوى .

* * *

هذه هى فكرة المعهد كما تمثلتها ودعوت إليها من شهر ديسمبر سنة ١٩٦٣ ؛ ومضت سنوات حسبت فيها أن الدعوة ذهبت مع الريح ، كغيرها من دعوات .

ثم ما كان أصدق اغتباطى ، حين أصدرت وزارة الثقافة بمصر ، قراراً وزارياً بإنشاء مركز للتراث ، مقره دار الكتب فى القاهرة .

وبدأ المركز فعلاً ، يستقبل من عام ١٩٦٧ ، طلاباً من حملة الشهادة الجامعية الأولى ، يدرسون طبقاً للائحة وضعها « مجلس المركز » الذين ندبوا للعمل فى المركز ، محاضرين وخبراء ومدربين .

ومع اغتباطى بإنشاء المركز ، ومشاركتى فى العمل فيه منذ بدأ ، أقول إنه بوضعه الحالى يبدو بعيداً عما تمثلت ورجوت . فطلابه من حملة ليسانس الآداب ، وليس فيهم من درسوا العلوم ليدربوا على تحقيق التراث العلمى للإسلام ، فى الطب أو الرياضة أو الطبيعة أو . . .

وأساتذته كذلك ، أكثرهم من المتخصصين فى علوم العربية والإسلام . وهم يشتغلون فيه ندباً ، وليس فيهم أى أستاذ متفرغ للعمل فى المركز .

وأعلم أن وزارة الثقافة تؤمن بجدوى المركز وتقتطع له من ميزانيتها بضعة آلاف جنيه فى العام ، لكن المركز لم يصدر به قرار جمهورى ، يأخذ به مكانه المعترف به بين المعاهد الفنية العالية ، التابعة لوزارة الثقافة ، ويدعم كيانه ، ويمنحه الاستقرار المادى والمعنوى ، ويفسح أمامه مجال الطموح إلى ما نرجوه له .

* * *

وأيًّا ما كان الوضع ، فإن مجرد قيام "مركز التراث" بادرة تقديرٍ للحاجة إليه

وخطوة أولى نحو المثال المرجو . ومن الخير أن يظل قائماً ، مهما تكن ظروفه وأوضاعه ، إلى أن تستجاب الدعوة إلى تشكيل هيئة عليا للتراث . تتولى النظر فى هذا المركز فى تخطيطها لأمر التراث كله . وتدبر لتطويره حتى يكون لنا منه المعهد الذى نرجوه لتراثنا .

ولا شك فى أن انتماء معهد التراث إلى جامعة الدول العربية ، يوسع من أفقه بحكم امتداد عملها ، على مستوى الوطن العربى كله .

obeikandl.com

وبعد فقد يبدو أنني أشق بهذا العبء على أمتي العربية في معركتها المريرة مع أعداء البشر ، وأوليائهم من ورثة الاستعمار لصوص الحرية .

لكني لا أرتاب في أن إدراكنا لأبعاد هذه المعركة ، كفيل بأن يرسخ وعينا لقيمة تراثنا ، ويحدد له موقعه في ميدان الجهاد .

والله المستعان .

عائشة عبد الرحمن

obeikandl.com